مدام دى لوزى

يقلم اناتول فرانس

من « علبة الصدف »

— ١ —

دخلت فدت بولين دى لوزى إلى يدها . ثم لزمنا الصمت حينا. وكانت قد ألقت فى شىء من الاهمال على أحد الكراسى طرحتها وقبعتها من الخوص

وفتحت على المزف صلاة أورفيه . ثم دنت من النافذة ، ونظرت الى الشمس تهبط فى الافق الدامى . فقلت لها آخر الأمر ، أتذكرين الكلمات التى نطقت بها منذ عامين يوما بيوم ، فى أسفل هذا التل ، وعلى شاطىء هذا النهر الذى تدبرين اليه عينيك الآن ؟ أتذكرين انك ، وأنت تدبرين حولك يدى للتنبئة ، قد أريتنى معدما أيام المحنة ، أيام الجراثم والهول ؟

لقد وقفت على شفتى اعلان حبى اليك وقلت : «عش ، وجاهد فى سبيل العدل والحرية ! » سيدتى ، لقد مضيت جريئا منذ دلتنى على الطريق يدك الى أغمرها كما كنت أحب بالدموع والقبل . لقد أطعتك ، فكتبت ، وخطبت . أنفقت عامين أجاهد فى غير هوادة أولئك الاغمار الجياع الذين ينشرون الاضطراب والبغض ، والزعماء الذين يسحرون الشعب بهذه المظاهر الصبية يصورون بها حبا كاذبا ، والجبناء الذين يضحون فى سبيل الفوز القريب .

فاضطرتنى الى الصمت بحركة من يدها وأشارت أن استمع ! هنالك سمعنا فى ثنايا الهواء العطر ، هواء الحديقة حيث تسدح الطير ، صيحات بالموت تأتى من بعيد : «الى المشنقة أيها الأرستوقراطى ! .. ليوضع رأسه على الرمح ! » .

وكانت شاحبة ، ساكنة قد وضعت اصبعا على فمها .

قلت ، انما هو الطلب يجد فى اثر أحد البائسين . فهم يهاجمون الدور ويقبضون على الناس نهارا وليلا فى باريس . ولعلهم يدخلون هنا . يجب على أن أنصرف حتى لا اعرضك للشر . فمع أنى لا أكاد أعرف فى هذا الحى ، فأنا فى هذه الايام ضيف خطر .

قلت : أقم !

وللمرة الثانية مزقت الصيحات الهواء الهادىء فى المساء . وكان يخالطها وقع الخطى وطلق النار. كانوا يدنون وكنا نسمع : « سدوا المنافذ ، لايفلت الوغد ! »

وكانت مدام دى لوزى ظاهرة الهدوء ، يعظم حظها منه كلما قرب الخطر .

قالت لنصعد الى الطبقة الثانية ؛ فقد نستطيع أن نرى من ثنايا النافذة ما يحدث خارج البيت .

ولكنا لم نكد نفتح الباب ، حتى رأت فى الدهليز رجلا ممتقع الحيلة ، تصطك أسنانه ، وتصطدم ركبتاه من الاضطراب . وكان هذا الشبح يتمتم بصوت مختنق : انقذونى خيشونى ! . . . هاهم أولاء .. لقد اقتحموا بابى ؛ واغاروا على حديقتى .. هم يدنون..

— ٢ —

عرفت مدام دى لوزى « بلونشونيه » الفيلسوف الذى يسكن الدار المجاورة ، فسألته فى صوت شديد الخفوت :

هل بصرت بك طاهيتي ؟ فهى بمثوبة !

أجاب لم يرنى أحد .

قالت الحمد لله ، أيها الجار !

ثم قادته الى غرفة نومها حيث تبعتها . ولم يكن بد من الحيلة ، ولم يكن بد من أن نجد مخبأ نخفى فيه «بلونشونيه» أياما ، أو ساعات على الاقل ، حتى نخدع الطالبين وتضيعهم . واتفقنا على أن أراقب المسالك الى البيت حتى اذا آذنتها انسل الصديق البائس من باب الحديقة الصغير .

ولم يكن فى اثناء ذلك يستطيع أن يثبت على قدميه . كان رجلا مصعوقا.

وحاول أن يفهمنا أنهم يجدون فى طلبه ، هو عدو القيصر والملوك ، لانه إئتمر بالدستور مع مسيو « دى كزوت » وانضم فى ١٠ اغسطس الى المدافعين عن قصر التويلرى. ولم يكن هذا كله الا اتهاما دنيئا . انما الحق أن «لوبان» كان يتبعه بحقده وموجدته ؛ كان لوبان جزاره ، وكثيرا ما هم أن يضربه بالصى ليأخذه بأن يحسن وزن اللحم ، ولكنه الآن يرأس لجنة الحى الذى يقوم فيه حانوته .

وبينا هو يتمتم بهذا الاسم مختنق الصوت ، خيل اليه انه يرى لوبان نفسه ، فأخفى وجهه بيديه . وكان لوبان يصعد حقا فى السلم . فأحكمت مدام دى لوزى رتاج الباب ودفعت الشيخ خلف ستار . ودق الباب ، وعرفت بولين صوت طاهيتها ، التى كانت تصيح بها أن افتحى ، وان لجنة البلدية بالباب ومعها الحرس الوطنى ، يريدون أن يفتشوا ، يزعمون أن بلونشونيه فى البيت ، وأنا واثقة بأنهم مخطئون ، فما كنت لتخفى وغدا كهذا ، ولكنهم لايريدون تصديق.

فصاحت مدام دى لوزي من وراء الباب حسن ! فليصعدوا ! أطلعيهم على البيت كله من أسفله الى أعلاه .

وسمع البائس بلونشونيه هذا الحوار فأغمى عليه خلف ستارة ، ولم ترد عليه الحياة الا بعد مشقة حين نضحت صدغيه بالماء . فلما أفاق قالت السيدة للشيخ فى صوت خافت : اعتمد على صديق ، واذكر أن النساء مكرة .

ثم اقبلت فى هدوء ودعة كما لو كانت تعانى بعض شؤون البيت الى السرير ، فجذبته من مكانه قليلا ، ونفضت الغطاء واستعانت بى فى لفه بين وسائده الثلاث فراغا مما يلى الحائط .

وبينا هي في ذلك اذا ضجيج عظيم للاحذية ، والقباقيب ، والكرانيف والأسواط اللغاط يسمع في السلم . فقضينا ثلاثتنا بغتة ملؤها الروع ، ولكن الضجيج صعد قليلا قليلا فوق رءوسنا . فعرفنا أن الحرس قد بدأوا بقيادة الطاهية اليعقوبيه يفتشون على البيت . وكان السقف يضطرب ، وكان يسمع للقوم نذير ، وضحك عليظ ، وضرب بالأرجل والخراب في الجدران . فتنفسنا ولكن لم نكن في الوقت سعة . واعنت بلونشونيه علي أن يدخل في الفراغ المهيأ بين الوسائد .

وكانت مدام دي لوزي ، تهز رأسها وهي تنظر الينا . فقد كان للسرير بعد هذا العبث شكل مريب . فحاولت ان ترده الي هيئته الأولى ، ولكنها لم تفلح .

قالت : لابد من أن انام فيه . ثم نظرت في الساعة ، فاذا هي السابعة مساء .

فقدرت أن لسراعها الي النوم في هذه الساعة سيبعث الريبة . ولا سبيل الى التفكير في تكلف المرض : فان الطاهية اليعقوبية خليقة أن تفضح هذا المكر .

فلبثت على هذا النحو مفكرة لحظات ، ثم اذا هي في هدوء وبساطة وحياء ، ملؤه الجلال تخرج من ثيابها أمامي ، ثم تدخل في سريرها وتأمرني أن أخلع أنا وأجرد من ثيابي وهي تقول : يجب أن تكون خليلي وأن نفاجأ في هذه الحال . فاذا اقبلوا لم نجد من الوقت ما نهيء فيه زيك وتصلح من شكلك . فتنتج لهم في لبسة المتفضل وقد انتثر شعرك . . .

وكان كل شيء قد تم كما قدرنا حين هبط الحرس الوطني صاخبا ساخطا .

وأخذ بلونشونية اليائس رعشة عنيفة كان السرير يضطرب لها اضطراباً .

وكان تنفسه من القوة بحيث كان يجب أن يسمع من خارج الغرفة .

قالت مدام دي لوزي : يا للخسران لقد كنت شديدة الرضى بهذه الحيلة . وبعد فلا ينبغي أن ييأس فلعل الله أن يعيننا .

واضطرب الباب لصدمة قوية .

قالت : من الطارق ؟

فاجيبت : هم ممثلوا الامة .

قالت : ألا تنتظرون حينا ؟

قيل : افتحي والا كسرنا الباب .

قالت : هلم فافتح ياصاحبي .

وما هي الا ان كانت العجزة فانقطع اضطراب بلونشونيه وزحيره لجأة .

— ٣ —

وكان أول الداخلين لوبان وقد أخذ منطقته وتبعه اثنتا عشرة حربة .

فأدار بصره بين مدام دي لوزي وبيني ثم قال : يخ ، يخ ! لقد استكشفنا عاشقين ! معذرة ايتها الحسناء !

ثم التفت الى الحرس وهو يقول : انها الاخلاق للثائرين . ولكن هذه للصادفة رغم حكمته قد ملأته سرورا .

فأقبل حتى جلس على السرير وأخذ يدغن الحسناء الارستقراطية وهو يقول : نعم ان هذا الفم لم يخلق ليردد في الليل والنهار : أبانا الذي في السماء ! .

ولو قد فعل لعظمت الخسارة ، ولكن الجمهورية قبل كل شيء . انما نبحث عن الخائن بلونشونيه . هو هناء لا اشك في ذلك . لابد لي منها . لأتقدمه لتضرب عنقه . ولأكون بذلك سعيداً .

قالت : فتشوا عنه اذن .

فنظروا تحت الاثاث وفي الخزائن ، وادخلوا الحراب تحت السرير ، وجسوا الوسائد بالخناجر .

وكان لوبان ينظر اليه بمؤخر عينه وهو يحك أذنه . فاشفقت مدام دي لوزي أن يوجه اليه اسئلة محرجة ، فقالت : انت تعرف البيت كما أعرفه ياصاحبي . خذ المفاتيح وطوف بسيو لوبان بكل مكان . وانا اعلم انك ستجد لذة وسرورا في ارشاد المخلصين للوطن .

فقادتهم الى الكهف حيث شربوا مافيه من حطب وشربوا عدداً ضخما من القناني . ثم شق لوبان بكرنته الدنان للترعة . فلما خرج من الكهف الغارق في النبيذ أذن بالرحيل . فصحبتهم حتى اغلقت من دونهم الباب ، وأسرعت أعلن الى مدام دي لوزي أن قد نجونا .

فلما سمعت هذا الباً عطفت رأسها الى الفراغ بين السرير والحائط ، ونادت : مسيو بلونشونيه ! مسيو بلونشونيه .

فأجابها رجع نفس ضئيل .

هنالك صاحت الحمد لله ! لقد روعتني فقد كنت أرى انك قضيت ! . ثم التفتت الى قائلة : مسكين انت أيها الصديق لقد كنت تجد لذة عظيمة في أن تقول لي من حين انك تحبني ، لن تتولدا لي بعد اليوم .

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

نقلها الى العربية

احمد حسن الزيات

وهي قصة من الشعر المنثور قوية العاطفة دقيقة الوصف رائعة الأسلوب . تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر بشارع الساحة رقم ٣٩ ومن المكتبة التجارية والثمن ١٥ قرشاً